موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من العلوم والمعارف المعاصرة (أو الدعوة إلى الانفتاح)

الدكتور كمال عجالي

جامعة باتنة

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ٥ ماي ١٩٣١، بعد أن وصل الصراع مع الاستعمار الفرنسي مداه، وتجلي ذلك في تصور فرنسا والقوى الاستعمارية فيها، أن الجزائر قد أصبحت فعلا قطعة من فرنسا لا يمكن لها بعد اليوم الانفكاك عن الوطن الأم -و بئست الأم هي- عند ذلك راحت فرنسا مبتهجة مسرورة بهذا الإنجاز الكبير، فعزمت على الاحتفال بمناسبة مرور قرن على استعمارها للجزائر. ولكن الله خيب فألها وقيض للجزائر عصبة مباركة عرفت بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فتصدوا للهجمة الاستعمارية بمشروع طموح تجسد في مناح مختلفة، منها الديني[1]، السياسي[2]، والثقافي[3]، والاجتماعي[4]. ظهرت آثاره فيما بعد محققة في تكوين إنسان جزائري حامل لرؤية وتصور حضاري مخالف لما كانت تهدف إليه فرنسا، وقواها الرجعية الاستعمارية. وقد استطاع هذا الجيل الذي تشرب الفكرة الإصلاحية وتربي على مبادئ جمعية العلماء، أن يقف ضد المشروع الاستعماري التغريبي المدمر للذات الجزائرية وخصائصها الحضارية العربية الإسلامية. وحققت تلك الثورة الثقافية التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أهدافها المنشودة الطامحة إلى الاستقلال والحرية. يقول الأستاذ صالح

---

(1)- انظر، أحمد الخطيب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر،(م وك) الجزائر، 1985، ص 173 وما بعدها.

(2)- انظر م س، ص 234 وما بعدها.

(3)- انظر، م س، ص 197 وما بعدها.

انظر، كذلك سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية الإسلامية قسنطينة (د ث)، ص 40 وما بعدها.

(4)- انظر، مصطفى هادف، المشروع العلماني الفرنسي وموقف جمعية العلماء المسلمين منه، إشراف محمد زرمان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة .2002م، ص 143 وما بعدها.

عوض في هذا المضمار."ولئن كانت الثورة الثقافية وتجديد الذات الحضارية التي قام بها الإمام ابن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي وأخوتهم العلماء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لئن كانت هذه الثورة تعتبر -بحق- أخطر مراحل تصدى الأمة للهجمة الحضارية في الجزائر إذ كان المشروع الغربي في هذه المرحلة يقضي بإلغاء الإنسان الجزائري لغة ودينا وهوية.. وهي بداية أخذ زمام مبادرة الصراع بيد الأمة في الجزائر.."[5].

أدرك العلماء في الجمعية، منذ النشأة أن الجهل والأمية وغيرهما من الأمراض الاجتماعية قد بلغا في أوساط الأمة مدى بعيدا وترتب عنهما أمراض اجتماعية، خطيرة تعمل كلها على تفتيت كيان الأمة المادي والمعنوي، الشيء الذي يجعلها لقمة سائغة للاستعمار. فركزوا على التعليم وبث روح التعلم عند العامة والخاصة. وكانوا بذلك يهدفون إلى وضع سد منيع أمام المشاريع الاستعمارية المختلفة، التزمت به لتجهيل الشعب وتكريس الأمية والتخلف، حتى يسهل عليه تحقيق أهدافه الخبيثة القريبة والبعيدة. لذلك كله وضعت الجمعية من ضمن مواد قانونها الأساسي، في"القسم الثاني: غاية الجمعية الفصل الرابع: القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل"[6]. ومن ثم اعتمدوا" العمل على انتشار المدارس والصحف والنوادي و"الجمعيات الأدبية" وما إلى هذا مما يمكن أن يكون طريقا للرقي المادي والنهضة الفكرية"[7].

---

(5)- صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830 إلى سنة 1920 مطبعة، دحلب الجزائر، ط1992/2، ص22.

(6) - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قانونها الأساسي ومبادئها الإصلاحية المطبعة الجزائرية الإسلامية(د ث) ص، 5-6.

(7)- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث (ش ون ث)، الجزائر ط1401/1هـ/1981م، ص 562.

وقد عبأ العلماء الجماهير لتعليم أبنائهم ودحر الجهل والأمية وجندوا أتباعهم من الشعراء والأدباء والفقهاء والوعاظ والمرشدين لخدمة أفكار الجمعية ونشر مبادئها. وبذلك"فقد اشتد تيار الفكر الإصلاحي بصورة جعلت منه مدا يكتسح الأفكار القديمة التي نمت في عصور الانحطاط وتجاوبت الحركة الإصلاحية مع مثيلاتها في المشرق العربي في الدعوة إلى النهوض ونبذ الجهل والتحرر من الجمود"(8) الذي جعل الأقطار العربية والإسلامية تزرع تحت نير الجهل والتخلف والانغلاق سنين طويلة، الأمر الذي نجم عنه انفصال عن ركب الحضارة الحديثة ومستحدثاتها. وبقيت تلك الشعوب أسيرة الأفكار القديمة ورهينة الأوضاع الرتيبة بعيدين عن عصرهم وما جد فيه من أفكار وفلسفات وصناعات وأشياء ملأت ساحات الدول الحديثة.

وكما كانت جمعية العلماء تدعو إلى طلب العلم –بمفهومه التقليدي– لم تنس يوما من الأيام الدعوة إلى طلب العلم في مفهومه الحديث، لأن العلم في تصور أعضائها قوة وحجة، سواء كان علما شرعيا أم علما دنيويا، فكما دعوا إلى هذا دعوا على ذاك. وكما حثوا على العيش الحاضر لم ينسوا الماضي وقيمه العالية المفيدة. وكان" الحديث عن الحاضر يرتبط بالحديث عن الماضي، عن علم الأولين وثقافتهم التي نسيها أبناء الحاضر وابتعدوا عنها وتنكروا لها. ويكون الحديث عن العلم حديثا عن القوة وكثيرا ما يختلط هذا بما وصل إليه الغرب من تقدم ورقي"(9).

استجاب الشعب لدعوة جمعية العلماء، فأنخرط الأبناء في طلب العلم، وبذل الآباء كل ما يملكون لتحقيق حياة تعليمية فضلى لأبنائهم وبناتهم" فدب في الأمة الجزائرية دبيب الحياة وقوي فيها الشعور بسوء الحال التي هي عليها، وتجلى هذا الشعور بالعمل في عدة مناح من حياتها العامة، فتجلى في الناحية الاقتصادية بالدخول في ميادين الكسب التي كانت وقفا على غير المسلم. وتجلى في الناحية الأدبية بتأسيس النوادي

(8)– م س، ص 573.
(9)– م س، ص 576

والجمعيات باللغتين العربية والفرنسية وبالبذل على العلم والتغرب في سبيله..."(10). ركز رجال الجمعية على انتشار التعليم وتعلم كل الحرف والمهارات والمعارف التي تخدم الجماعة وتكون في صالحها. وكان ذلك في تصورهم واجبا على كل قادر مستطيع، لذلك نجد الشيخ ابن باديس يوضح هذه الفكرة واعتبرها مبدأ من مبادئ الجمعية مادامت تحقق للأمة وللشعب منفعة وتصون لهما مصلحة إذ قال: "المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة"(11).

كما انتقد ابن باديس المسلمين عامة، ومنهم الجزائريون ونعى عليهم اقتصارهم على تعلم العلوم الدينية واتكالهم على العقائد المجردة دون التسلح بالعلوم العصرية، والأخذ بالأسباب المادية النافعة في الحياة الدنيا. فقال:"فلا يفتتن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من يدين دينهم، فإنه لا يمكن تأخرهم لإيمانهم بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم، و لم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة"(12).

والفكرة نفسها نجدها عند الشيخ الطيب العقبي، الذي عبر عنها شعرا حين قال معرضا بتأخر المسلمين، وأعراضهم عن طلب المعارف والعلوم العصرية: مما تسبب عنه تقدم مهول في بلدان الغرب وتخلف فضيع في بلاد العرب والمسلمين:

ذهبوا بلذات الحياة جميعها/*/ والمسلمون بكل خزي باءوا

حازوا الفضائل والمحاسن كلها/*/ وتحكموا فينا كما شاءوا(13)

(10)- سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 50.

(11)- جمعية العلماء، قانونها الأساسي، ص 14.

(12)- عبد الحميد بن باديس، تفسير بن باديس منشورات مؤسسة المعارف وهران الجزائر (د ت) ص 67.

الطيب العقبي (فكرة حرة)، جريدة صدى الصحراء ع 03، بتاريخ 1925/12/07.

(13)- البرق: ع 17 بتاريخ 1927/07/04.

و هذه الأفكار ليست بدعا في تصور جمعية العلماء وبرنامج عملها، بل هي أفكـــار معظم رجال الحركات الإصلاحية الحديثة في بلاد المشرق والمغرب إذ" أن المصلحين مـــن أمثال الأفغاني وعبده وإقبال وابن باديس أجمعوا على ضرورة الاستعانة بالعلم الحديـــث لأنهم رأوا أن تقدم العالم الغربي الأوروبي، إنما يرجع إلى تحريرهم من عقليـــة العصـــور الوسطى، ومن رجال الكنيسة الذين زعموا أنهم قادة الفكر وحملـــة العلـــم في الدنيـــا والآخرة"[14].

لقد كانت نظرة رجال جمعية العلماء بعيدة الأهداف والمرامي يمكن أن ندركها مـــن قول الإبراهيمي وهو يعبر عنها بصراحة حين قال: "وصفوة رأي الجمعية في السياســـة الجزائرية تحرير الجزائر على أساس العروبة الكاملة والإسلام الصحيح والعلم الحي وعلـــى ذلك فهذه الجهود الجبارة التي تبذلها جمعية العلماء في سبيل العروبة والإسلام والتعليـــم كلها استعداد للاستقلال وتقريب لأجله..."[15].

والاستعداد للاستقلال وتقريب أجله لا يكون إلا بطلب كل العلوم والمعارف الـــتي تساعد على تحقيقه سواء كانت علوما شرعية تقليدية تبصر الإنسان بدينه وحقيقته ومـــا يفرضه عليه إسلامه، أم كانت علوما ومعارف جديدة مستحدثة فرضها التطور وجد بها العصر. وربما هذا ما يجعلنا نعتقد أن حث رجال الحركات الإصلاحية على طلب العلوم والمعارف العصرية لم يكن ضربا من اللغو ولا دعوة مجانية إذ " كان الأفغـــاني وعبـــده وإقبال وابن باديس يرغبون من المسلم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن أن يـــأخذ من الحضارة الغربية الجوهر، اللب ولا يكتفي بالمظاهر والقشور بل يهتم بالعلوم الحقيقية مثل العلوم الطبيعية والكيمياء والفيزياء والرياضيات والهندسة والميكانيكا وغيرهـــا مـــن

(14) – محمد طهاري، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر(الكتاب الثـــالث)، دار الأمـــة ط1/1999 ص،67.
(15)– الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ج4 (م وك) الجزائر 1985 ص 240.

العلوم التطبيقية أو الفنون التي لا غنى عنها في تسخير الطبيعة أو كسب أسباب القـــوة الحربية"(١٦).

وكما دعا رجال جمعية العلماء، إلى الأخذ بالعلوم العصرية والمعارف المستحدثة، التي يتطلبها الظرف الحضاري، دعوا بالقدر نفسه للعودة إلى الأصول وحرصوا كل الحـرص على التمسك بها "و هذه العودة إلى الأصول لا تعني أبدا الانغلاق والتقوقع في شـــرنقة التراث، والهروب إلى الماضي السعيد، والتغني بأمجاده، والاستئناس بالموتى كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس- بل هي دعوة صريحة إلى استشراف مستقبل زاهر وغد أفضل مـــن خلال الارتكاز على الثوابت الحضارية"(١٧).

فهذا الشاعر محمد العيد وهو أكبر شاعر معبر عن فكر جمعيـــة العلمـــاء المســـلمين الجزائريين، بعد الدعوة إلى تمسك بالدين ومصادره، والعودة إلى أصوله والذود عنه يدعو إلى طلب العلوم وجلب المعرف الحديثة يقول:

ولا تهملوا أمـــر الحيـــاة فإنهـــا	حياة نشاط بـــل حياة جدال
فبينكـــم الغربي وهو أخـــو العـــلا	يجد لإدراك العلـــى ويوالـــي
طوى الأرض بالحظ الحديد ى وينرى	يجول مع الارياح كـــل مجال
و أبـــدع طيارا بـــدون محـــرك	فهـــل كان هذا يستقر ببـــال
و شـــق عباب البحر والبحر مزبـــد	بغواصـــه ينساب غير مبالـــي
يغوص مع الحيتـــان في لـــج بحـــرها	فتحسبه الحيتان ضرب وبال(١٨)

و لم تقتصر دعوة جمعية العلماء على طلب العلم المادي فقط، بل لم تكن ترى بأسا في الإفادة من الأفكار المفيدة البناءة التي تعمل على تطوير المجتمع وتقدمه وتزويده بالخـبرات

(16)- محمد طهاري، الحركة الإصلاحية، الكتاب الثالث، ص 114.
(17)- محمد زرمان، ملامح الخطاب النهضوي في فكر الطيب العقبي، محـــاضرة ألقيـــت في ملتقـــي الشخصيات النضالية ة العلمية الجزائرية للشيخ الطيب العقبي -دار الثقافة أحمد رضا حوحو، بســـكرة يومي(7-9) ماي 1997- (مرقونة)، ص 4.
(18)- محمد العيد، الديوان(ش ون ث) الجزائر، ص 13.

والمكتشفات. يقول عبد الحميد بن باديس عن أسباب تقدم الغرب وتوسع حضارته وكثرة مكتشفاته في مناح مختلفة من شؤون الطبيعة والحياة: كل ذلك بسبب تفكير علمائه وإعمالهم العقول. وذلك حين قال: "وقد كانت مكتشفاته أكثر مكتشفات جميع من تقدمه – كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي– لتكاثر المعلومات فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات، فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها. وهكذا يكون كل قرن - مادام التفكير عمالا- أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله"(19).

غير أن هذه الدعوة لم تكن مطلقة، بل كانت مقتصرة على الأفكار الجادة والتي لا تتصادم مع العقيدة ولا مع الشريعة الإسلامية السمحة. ذلك لأن الإسلام وإن كان" يمجد العقل ويدعوا إلى بناء الحياة كلها على التفكير"(20)، ولكن التفكير السليم، المفضي إلى التقدم في مجالات الحياة المختلفة. إذ ليس المقصود بالعقل والتفكير عند الحركة الإصلاحية(21)، ما أفرزته الحضارة الغربية من فلسفات مادية ملحدة وإباحية فاضحة.

فقد نبه العقبي وهو أحد رجال الجمعية من مخاطر ذلك، فقال "ليس التمدن عندنا بتلك المظاهر البراقة والصور الرائعة الخلابة في حال ترتكب فيها الأفعال المخزية والأعمال المردية كلا"(22)، الأفعال المخزية والأعمال المردية الناتجة عن أفكار وتصورات بل وعقائد منحرفة. لا يرضاها الإسلام.

أما العلوم والمعارف والآداب والفنون الراقية، لا شك أن كل الشعوب تحتاجها في حياتها، فتتلاقح الأفكار وتتبادل التجارب والخبرات بين الأمم والحضارات. وهي في الحقيقة حق مشاع بين الناس. ليس حكرا على أحد. ولكل شعب، ولكل حضارة أن

---

(19)– ابن باديس، تفسير بن باديس، ص 131.
(20)– جمعية العلماء قانونها الأساسي، ص 12.
(21)– انظر، محمد الصالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار 1898-1935، الدار التونسية للنشر تونس، كلية الآداب تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص 88.
(22)– الطيب العقبي، (الإسلام والتمدن العصري)، السنة ع1 بتاريخ 1933/04/10.

تأخذ ما تشاء، وما يناسب خصوصيتها وذاتيتها." فإن العلوم والآداب والفنون تـــراث الإنسانية كلها، لا تستقيل فيها أمة، وأكمل الأمم إزاءها من تحسن كيف تحافظ علـــى حسنها وتستفيد من حسن غيرها"(23).

غير أن جمعية العلماء لم تترك الأمر على عواهنه، بل نبهت إلى عنصر جد مهم وجـد خطير، وذلك حين راحت تحذر من الأخلاق الفاسدة التي طبعت العصـــر وخاصـــة في البلدان الغربية، التي بلغت فيها الحرية مداها في جميـــع المجـــالات إلى درجـــة الشـــطط والانحراف والخروج عن الفطرة السليمة، بل إلى حد السقوط والارتكاس في حمأة الرذيلة والحيوانية التي لا يقبلها الإنسان العاقل السوي. وهذا ما حذر منه الشيخ الطيب العقـــبي حين قال: "نعم نرى في تمدننا اليوم رغم حسناته الكثيرة مساوئ لا يحسن الســـــكوت عليها ولا يسوغ للمتشبع بالعقلية الإسلامية قبولها والموافقة عليها بحال من الأحوال ذلك لما فيها من ضرر محقق وفساد للأخلاق تتبرأ منه وتتنزه عنه شرائع الأخلاق"(24).

كل ذلك لأن الأخلاق الفاضلة هي إكسير الحياة، وبانعدامها في الشعوب أو انحلالها في المجتمعات وفقدانها يؤدي حتما إلى زوال تلك الشعوب وتلك المجتمعات من الوجـود. لـــ" أن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حـــتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشي"(25).

تقييم:

إن ما يمكن أن نصل إليه من خلال ما سبق من عرض لأفكار أقطاب جمعية العلمـــاء هو أن هذه الجمعية لم تكن جمعية دينية منغلقة على نفسها وإنما جمعية أصيلـــة منفتحـــة "وكانت رؤيتها تقوم على الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح. والانفتاح على العالم

---

(23)- عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ج5،من مطبوعات وزارة الشـــؤون الدينية، طبع دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة الجزائر، ط1، ص 151.

(24)- الطيب العقبي،(الإسلام والتمدن العصري)، السنة ع1 بتاريخ 1933/04/10.

(25)- ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد غريب مكتبة المعـــارف بـــيروت لبنان، ط3، 1980، ص11.

المعاصر دون الذوبان فيه ... والتشديد في الأصول والتسيير في الفروع وهو ما يمكن أن يصطلح عليه بالانفتاح الحضاري"(٢٦).

والانفتاح الحضاري ليس هو تقليد الغرب في كل شيء، وأخذ كل ما أفرزته حضارته من علوم وفلسفات ومبتكرات. وإنما المقصود بالانفتاح الحضاري ذلك الجانب الإيجابي، الذي تعتمد عليه الشعوب والمجتمعات في تقديمها نحو الأفضل. والمقصود "بالانفتاح الاستفادة من الإنجازات العلمية والفنية والتنظيمات الإدارية والوسائل والخبرات العامة الحديثة التي أبدعتها الحضارة الغربية، وذلك باقتباس العلوم الطبيعية والزراعية والتقنية كعلوم الصناعات، والتجارة وعلوم الاتصال والمواصلات وعلوم الطب والصيدلية وعلوم طبقات الأرض ومعادنها وما إلى ذلك من العلوم والمعارف التي تتصل بالمادة وظواهرها"(٢٧).ذلك كان في مجال الطبيعة، كما "يمكن أن نضيف إليها ثمرة التجارب الإنسانية عبر تاريخها الطويل في التنظيمات الإدارية والوسائل والخبرات العامة والتي تمثل أوعية صالحة يتم إخضاعها للمثل والمضامين التي يهدف إليها من يستلهمها"(٢٨)، شريطة أن لا تتصادم مع عقيدته ولا مع شريعته. والإسلام نفسه لا يحرم ذلك ولا يقف ضده(٢٩)، بل يشجعه ويدعو إليه(٣٠).

لأن الشعوب والحضارات تتأثر ببعضها البعض، وتفيد هذه من تلك، وهذا ناموس كوني وقانون اجتماعي يفرضه العمران البشري وتتطلبه مقتضيات الحياة بقضاياها

---

(26)- محمد زرمان، الانفتاح الحضاري ومكانته في التغيير الإسلامي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الموافقات العدد 5، جوان ص 136.
(27)- محمد زرمان، ملامح الخطاب النهضوي في الفكر الطيب العقبي مرجع سابق ص 7.
(28)- محمد زرمان، الانفتاح الحضاري ومكانته في التغيير الإسلامي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، الموافقات ع 5، ص 137.
(29)- انظر، سيد قطب العدالة الاجتماعية في الإسلام، مكتبة مصر ومطبعتها ط2، ص 28- 29.
(30)- انظر، محمد الغزالي، مئة سؤال عن الإسلام مكتبة رحاب، الطبعة الجزائرية الأولى 1419- 1999 ص 464، ص492.
وانظر، كذلك، يوسف القرضاوي، قضايا إسلامية معاصرة على بساط البحث، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1410هـ/1990 ص 151 وما بعدها.

ومتطلباتها المتجددة يوميا."ذلك لأن الانفتاح قانون طبيعي يحكم حياة الأمم والشعوب، ويفرض عليها أن تتفاعل فيما بينها عبر جسور الاتصال والتواصل لتحقيق عملية التأثير والتأثر، والأخذ والعطاء ولا تستطيع أية الأمة أن تنغلق على نفسها وتتوقع داخل ذاتها، وتقطع روابطها بالعالم الخارجي لأن ذلك سيؤدي إلى الموت المحتم، لأن الانفتاح على الآخرين سنة كونية ثابتة، لا سبيل إلى مغالبتها أو تجاوزها"[31].

ولما كانت جمعية العلماء قد انطلقت في مبادئها الإصلاحية من الإسلام وأصوله، فقد أفادت من كل ما يمكن أن ينفع ويفيد الأمة مادام الإسلام لا يرفض ذلك، مع العلم أنه" قد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها، لا يرضى بواقعها في زمان ما أو في مكان ما. ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكرابح من نزعات وقيود. سواء في فترة خاصة، أو في المدى الطويل"[32].

كانت جمعية العلماء ترى أن الإسلام عنصر فعال في تطوير الأمة، وتعبئة الجماهير نحو الرقي والتطور والتجديد فوظفته في برنامج عملها واعتمدته في مبادئها وفلسفتها الإصلاحية لقناعتها التامة في أن "مهمة الإسلام دائما أن يدفع بالحياة إلى التجدد والتطور والرقي، وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع"[33].

وذلك ما كانت تطمح إليه الجمعية من الإفادة من العلوم والمعارف المعاصرة، وحذرت بشدة من الفاسد الممجوج من قشور الحضارة الغربية الذي تكون مضاره أكثر من فوائده والذي حتما تكون نتائجه وخيمة. حيث هناك بون شاسع بين ما هو نافع وبين ما هو ضار فاسد. يقول أحد الدارسين "أما الفاسد الضار فهو الذي يهاجم خصائص الهوية الإسلامية ومقومات شخصيتها، ويستهدف عقيدتها بالتشويه والمسخ،

(31)- محمد زرمان، الانفتاح الحضاري ومكانته في التغيير الإسلامي عند البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 7.
(32)- سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج دار الشروق، بيروت ط8، 1422هـ/2001م، ص 16.
(33)- م س، ص نفسها.
وانظر، كذلك، عون الشريف قاسم، الإسلام والثورة الحضارية دار القلم بيروت لبنان 1400هـ/1980م، ص 46 وما بعدها.

وأخلاقها بالتحلل والميوعة، وتراثها بالمحو والطمس. فهذه الجوانب الأيديولوجية التي تمثل الخصوصية الحضارية لكل أمة هي الميدان الذي يجب إلا يخضع لعمليات الاقتباس، لما فيه من أخطار تهدد كيان الأمة التاريخي والحضاري بالانقراض"(٣٤).

والخوف من ذوبان الكيان الجزائري وانقراضه وتفتت عناصر الهوية إلى امشاج، هـو ما كانت تخشاه الجمعية من مخططات القوى الاستعمارية التغريبية التي كانت تستهدف الجزائر، شعبا وهوية. وحتى وإن كانت هناك بعض النشاطات السياسية من هذه الجمعية السياسية أو تلك، فالفضل لله ثم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أرجعت كيـد القوى الاستعمارية في نحرها، فخابت آمالها وتحطمت مشاريعها أما المقاومـة الباسلة لرجال الجمعية بكل ما يملكون، عن الجزائر وكيانها المستهدف. "لقد شهدت السـاحة الجزائرية نشاطا سياسيا قبل نشوء جمعية العلماء. كما شهدت نشاطا مرافقا للجمعيـة، لكن يرجع للجمعية الدور الرئيسي في تحديد إطار المعركة الحضاريـة ضـد الهجمـة الغربية"(٣٥). وتسعت لها بكل ما تتيح به الظروف وتسمح الإمكانيات بما فيه حضـارة الغرب نفسها بعلومها ومعارفها ومخترعاتها، وتحقق الهدف المنشود الذي كانت تعد لـه الجمعية، ممثلا في الاستقلال الذي بشر به رئيس الجمعية نفسه حين قال "وتصبح البـلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر، هـذا هـو الاستقلال الذي نتصوره"(٣٦).

وهو فعلا ما تريده وترجوه جماهير الشعب الجزائري في أمسها الغابر ويومها الحـاضر ومستقبلها الزاهر.

---

(34)- محمد زرمان، الانفتاح الحضاري ومكانته في التغيير الإسلامي عند الشيخ البشير الإبراهيمـي - مرجع سابق- ص 146.

(35)- صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، ص 191.

(36) - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمـة. للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ط1، 1998، ص 134.